

أنثى من شعر... قراءة في ديوان "مكان لا يعول عليه" لنؤارة لحرش.

أحمد صانع
المركز الجامعي - تيسمسيلت

الملخص:

إن لغة الشعر ليست مجرد قوالب تحكمها رغبة الشاعر في القبض على معنى ما أو التعبير عن صور وأحاسيس تتخمر في ذاقلته الشعرية، إنما هي علاقة وجودية فلسفية ذات عمق دلالي تربط حضور هذه اللغة بالمعنى، و تربطها بمشروع فكري يهدف إليه صاحبها، نفس الأمر ينطبق على تجربة الشاعرة الجزائرية نؤارة لحرش في ديوانها الثالث "مكان لا يعول عليه"، إذ تلقي على القارئ مجموعة من الأسئلة التي تحيله إلى محاولة فهم الحياة كما حاولت هي أيضا فهمها، مستعينة بشبكة لغوية تجمع فيها عناصر جمال الصور الشعرية وقوة المعنى المتوقع واللامتوقع الذي يكسر أفق توقعات القارئ.

ملخص المقال باللغة الإنجليزية:

The language of poetry is not merely a template controlled by the poet's desire to capture a meaning or to express images and feelings that are fermented in his poetry. It is a philosophical existential relationship with a symbolic depth that links the presence of this language to its meaning. The experience of the Algerian poet Nawara Lahersh in her third book "As an unreliable place", as the reader receives a set of questions that lead to an attempt to understand life as she tried to understand it, using a linguistic network in which the elements of poetic beauty and the power of the expected and unexpected meaning Breaks the horizon of the reader's expectations.

الكلمات المفتاحية: المعنى - اللغة - المكان - نؤارة لحرش - الذوق.

تمهيد:

إن الإبداع الأدبي عالم من العجائبيات والمثير الذي يكسر كل الأعراف التي يتفق عليها البشر، فهو "التمرد على القواعد العامة بهدف التفرد، والتفرد هنا يرتبط بكل تصور جمالي"¹، والذي ينشئ ما لا يوجد بشيء موجود سلفا في حياة الإنسان، لذلك يفتح آفاق التوقع للقارئ الذي يدي رداً فعل متنوعاً تتمخض وفق تجارب وأفكار و أحاسيس يعيشها في ذات الوقت الذي يكون فيه هذا القارئ في حضرة الأدب، ليصنع علاقة حميمة طرفها الثاني ما يقرأ من إنتاج أدبي. إنها اللحظة الأجل التي يشعر فيها الإنسان بإنسانيته وبوجوده في خضم كل المتغيرات والتقلبات والانتصارات والانكسارات التي يعيشها في حياته.

لقد أهدتنا الشاعرة نؤارة لحرش في ديوان "مكان لا يعول عليه" هذا الشعور المتكامل بنشوة الانتصار أمام اللغة ونشوة الفرحة أمام المعنى، ونشوة الشفاء من مواجهنا

ليس الهدف من هذه القراءة الوصول إلى نتائج نهائية أو آراء نقدية جاهزة من أجل فهم التجربة الشعرية أو هاجس الكتابة عند الشاعرة الجزائرية نؤارة لحرش، بقدر ما أردت أن أدون بعض ما انتدح له زناد الخاطر من التذوق الجمالي لهذا الإنتاج في محاولات نقدية انطباعية، من قارئ يأخذ النقد مأخذ الرؤية الجمالية للأدب واضعاً في الحسبان وجود تفاوت في مستويات العبور الجمالي للنص الأدبي، إن استطعت العبور في لغة يمكن بها التحوّل مع النص وتعليله والوقوف على مسوغات الدلالة وحالات وجوده وتشكّله، من أجل تسليط الضوء على أبرز التيمات التي تثير الدهشة والإبهار في ثنايا النصوص، والبحث عن أوجه تشابه بين تجربة كاتبة إنسان وقارئ إنسان لها نفس الهموم والتطلعات والأسئلة في هذه الحياة، ولكل قارئ وناقذ جواز عبور يدخل به عوالم التذوق الجمالي للإبداع الأدبي.

وجراحنا حتى في لحظاتها الحرجة، فأقامت علينا الحجة لنارس تظهرها نفسيا أشبه بزيارة دورية لطبيب مختص نريد منه الحصول على إجابات شافية لحالات التعب التي نعيشها، بنفس المعنى الذي تبناه أرسطو في "فن الشعر" عند تجنيسه لفن المأساة باعتبارها: تطهير عبر إثارة الخوف والشفقة²، لمداواة النفس من كل رؤية شريرة مكبوتة ستحوّل فيما بعد إلى تحريرها وتوجيهها في خدمة الخير والإنسانية.

"مكان لا يعول عليه" هو المدخل الدال الذي اختارته نوارة لحرش للولوج إلى عالم الشاعرة الأنثى، هو تشكيل أبدا لم يكن عبثا، أو مجرد مدخل اختارته للهروب من سلطة البحث عن العنوان المناسب والمثير، لكنه يمدنا بزاوية ثمين لتفكيك النص ودراسته كما يرى محمد مفتاح³، وهو العنوان ذاته الذي يحيلنا على داخل النصوص قبل قراءة النصوص ذاتها إن اعتبرناه كما تراه الدراسات السيميائية عتبة أولى ووجه مصغرا على غلاف الكتاب، فهو يعد "نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة"⁴.

إنّ **"المكان"** الذي لا يعول عليه لم يعد عند الشاعرة مكانا ماديا حسيا مما اختاره الإنسان ليعيش فيه أو يتردد عليه من مختلف المعاريات التي تحيط به، ما يقصد بذلك الموضع الذي يحتوي مختلف الأشياء والأجسام ما يعطيه قابلية التحديد والوصف، ولم يعد ذلك المكان الذي "يدرك بفضل وسائط اجتماعية لا بد من عبورها حتى يستطيع أن يفهم حقيقة العالم الخارجي"⁵، ولم يعد مكانا حميميا يأوي إليه طلبا للراحة والأمان، ولم يعد حتى مكانا متخيلا أو ميتافيزيقيا تؤمن به أو نشعر بوجوده رغم وجوده في عالم الفكر فقط.

إنه المكان **"المعنى"** الذي سقط في بئر السؤال طلبا لماء الحياة، إنه المعنى الذي تشكل في ذات الشاعرة وذاكرتها مجسدا تراكمات حياة عمرها بعمر أول نص أنتجته، إنه المكان المعنى الذي صنعته بجمال اللغة الشعرية متجاوزة الواقع أو متناقضة معه، ومتجاوزة اللغة أحيانا عندما راحت تسبح في عالم المتخيل، فهو **"المكان الشعري"** لا يعتمد على اللغة وحدها وإنما يحكمه الخيال الذي يشكل المكان بواسطة اللغة على نحو يتجاوز قشرة الواقع إلى ما قد يتناقض مع هذا الواقع⁶، إنه المكان نفسه الذي يحيل إلى صوفية ابن عربي

في مقولته **"المكان الذي لا يؤث لا يعول عليه"**، ولعلها - الشاعرة الأنثى - أثبت المكان بوجودها فلا حاجة لها لكل الأمكنة أو لنقل اختارت أن تؤكد مقولة ابن عربي بروح أنثى تحترف الكتابة.

أرادت نوارة لحرش أن تعيد ترتيب أثاث بيتها اللغوي لتفرض وجودا ما، ينطلق من ممارسات لغوية تصنع بها ديكورا جديدا يختلف عما كان عليه من قبل، هي نفسها - الآن - شهرزاد التي تعيد الاعتبار ل**"مكان"** الأنثى في ليالي شهريار، تنسج وجودها المعنوي بخيوط الفكر في حياتها، ويايرة الحزن المغرورة في وجودها مذ حملت على عاتقها هاجس المثقف الأنثى، إنه **"المكان"** الشفيف الذي لا لون له ولا **"مكان"** له، قابل للنهابة كما الحياة، إذن هو الحياة التي ستنتهي قريبا، وستبدأ عما قريب حالما يتشكل في ثنايا نصوصها وزوايا القصائد التي شكلت مولودها الثالث بعد (نوافذ الوجع) و(أوقات محجوزة للبرد)، تثبت لا انتمايتها للمكان، إنما تتمسك بمعنى المكان المشكّل في حضرة اللغة التي تصبح كلّ شيء:

وحده قيص اللغة

وطني و منفائي

ووحدها العزلة العالية هوية و انتماء⁷

و بمعنى المكان الذي يشبه الوهم، فتجعله كل شيء مرّة أخرى:

كأنّني تنكح على شرف الأوهام المنهكة

و في زمير القشعريرة

أسقط متعثرة بما يشبه الحيات المرهقة⁸.

و بمعنى المكان (اللامكان) الذي لا يتأسس على احتمال اكتشافه البتة:

لا سماء تتسع لي

لا أرض تهجى خطواتي و تهمني أبجدية

ناصعة للحضور⁹.

و بمعنى المكان المولم المؤلف المؤث كإدبة تحيل على الفرح لكنها تستحيل ألما في كل ثنايا وجودها:

الأم الذي عن طيب خاطر يفرش مآدبة لي

ويصير أريكتي

أمكنتي

وميراني¹⁰.

وبمعنى الزمان الذي يلزم معنى المكان، وكلاهما مجموعة من الإحالات على حالات أنثى تعيش على حزن

سدّ فراغات الفرح حيناً، والأمل حيناً، والضيق أحياناً أخرى، تشبّع ألماً بطعم المرارة القاتلة التي تملأ الزمان الحاضر والمستقبل أو كلما استعانت بالذاكرة لتعود إلى عافية ما أنهكها التعب:

— هذا الليل المكون على جنبي / يفتاتني على ممل¹¹

— على حين ألم/طوى الوقت بأظافر باردة/فتشردت الروح في الجهات قشعريرة¹²

— أتسلق نهاري مرتعدة/ لا مرايا تضيء ملاحي لا حكايا تهدد الليل المشتعل قرب مزامير البال¹³

— الغد جورب نحيل/مبلل بالقلق و الطنون¹⁴

إن الدخول إلى عالم نوارة لحرش اللغوي في هذا العمل، يحملنا بوعي أو بغير وعي لنقول إنها "امرأة مصابة بداء الشعر"، تعلن أنها ستكون أنثى من لغة، تلف كل التفاصيل في نصوصها لغة تحقق بها كل شيء، وتحلق بها انسجاماً بين بلاغة المعنى وشغف الرؤية الشعرية التي تحاول الانصهار مع لغة الشعر، وهي على ذلك توظف لغة بسيطة جميلة في إيجازات وانزياحات ترفض القوالب المستنسخة للمعاني التي يكثر تكرارها بين بعض الشعراء، "إنها اللغة التي تعني كل ما ليس شائعاً ولا عادياً ولا مصوغاً في قوالب مستهلكة"¹⁵، تكتب فتبني، وتهدم ثم تعيد البناء من جديد في نشاط لغوي غزير حي لا يتوقف بسهولة، ويصعب الإمساك بما يتضمنه لما له من سلاسة توليدية تستمر بلا ملل حين وقوع فعل القراءة:

الشتاء مروحة القلب

والحياة معطف مثقوب الباقة والجيوب..

وأنا ربح ورضا قليل¹⁶.

إنها ترسم تجربتها الشعرية بألوان اللغة، فتجعل منها مادتها التي تكمل تفاصيل لوحاتها التي ميّزها الحزن الحاضر في أغلب مفرداتها، يعصف بها الشجون لتبوح هذه الأنثى بأسرار التعب من تفاصيل حياتها:

أفتح قبص اللغة/ أنزوي فيه/ كما لو أنه جنتي¹⁷.

هذا الليل المكون على جينيبي/يقتاتني على ممل/يعلنني في الكون فاحة تقضمها

العمة المشرّبة إلى سقف الملل¹⁸.

هي تجربة منبثقة من رؤيا أنثى للحياة وللشعر، ذلك أن الرؤيا في الشعر تعتبر "بؤرة توتر في الشعر، وجوهر الانفعال الوجداني، تمكن الشاعر من نسج خيوط لغوية

كفيلة بالتعبير عن رؤيته للوجود عبر تجارب واقعية وأخرى متخيلة، تتخطى المقاييس الزمنية لتدع المشاعر تعيش في عالم خاص"¹⁹. لتكون اللغة عندها حياة أخرى، والمعاني وجود جديد في هادي الحياة التي تعجّ بالرؤى الواعية التي تتجاوز الظاهر إلى باطن الأمور، متجاوزة حدود الذاكرة والعقل، و باحثاً عن إيجاد علاقات جديدة ترسم بها خارطة لشعر يعبر عن ذات مبدعة تكتب عن تجربة وعن قناعة مبدع يشارك الآخر تلك التجربة:

أتمدّد في المعنى

أفتح باباً بقامة الأحلام

أدخل منه

إلى حياة ليست بانتظاري

أصافها بجمرة لا مثيل لها

إلا في المفردات

تصافني بقفزات من جليد

قول: طقس لا يلائمها

فتنطفئ في البال فكرة الحياة

التي كتبها قبل قليل²⁰.

تثبت الشاعرة مشروعا متجانسا تبنته في هذا العمل، وهي مؤمنة بأنها تقدّم مجموعة أحسنت فيها الاشتغال على متراكبات كثيرة ومتناقضات جانست فيها بين الممكن والمستحيل، بين الحضور والغياب، بين المكان واللامكان، في حضور كم نوعي من الأسئلة اللانهائية المفتوحة المتوالدة، أسئلة تورق المبدع انطلاقاً من آلام الحياة التي لا يراها غيره، وقد يعيشها غيره لكنه لا يجد رأس خيط يقوده إلى نور الإجابة فيها، فالنعيم عند العامة "شيء" من اللانعيم عند المبدع، والسعادة التي يشدها هؤلاء "معنى" من اللاوجود عنده أيضاً، فكلمة فتحت نوارة لحرش باباً للسؤال، شرّعت أبواباً لأسئلة قابلة للتدبّر في مناهة الحياة، وللانطلاق إلى أبعد نقطة من عالم المعنى، قد تبدو الإجابات قريبة لكنها ليست إلا انعكاساً لمرايا الأجوبة التي تحيل إلى معرفة (الذات) وموقعها في (الوجود)، إنها أسئلة أنثى تحشد فكر الإنسان وتوقعه في فخ اختلافاتها الوجودية:

لو مرة/ سقطت سهوا/ من شجر المعنى/ كيف أعترف على أنا؟²¹

كيف لي أن أحيل العراء أمكنة من حنين/ كيف له أن يحيل البهاء/ إلى إله حزين؟²²

البشر الذين يغمرهم السوء/بأمنيات مسهدة/هل أنا
منهم؟/هل هم أنا؟/و أنا هم؟²³
ما بها الجهات ترتعد من قلبي؟/ما بها الحياة أعلى من يافعة
أيامي وأقصر من قامتي؟²⁴

"مكان لا يعول عليه"، هدوء لغوي ولحظات تأمل، ذات تبحث عن ذاتها في لانهائية المعنى، أنثى من شعر وحبّ تبحث عن مكانها و كأنها وجدته في زاوية ما من حروف اللغة ومن بقايا الذاكرة، عواصف من خيبات الحياة وانكساراتها، حزن يلبّد غيمات الحضور، خيال يبلّل يبوس الجمل البسيطة في جمال، فلسفة كتابة تنمو على أعتاب الفكر والتأمل، شعرية قابلة للشعر، "قصائد نثر" كأجمل من أن تقبر في قوالب تكسر رهبة معانيها وامتدادها، تجربة تختصر اسماً لشاعرة تستحق القراءة الأدبية والنقدية كأجمل ما يكون.

الهوامش:

1. أحمد المديني، أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص32.
2. عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد و البلاغة العربيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص166.
3. محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص72.

4. محمد فكري الجزار، العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1998، ص15.
5. محمد اساعيل قباري، علم الاجتماع و الفلسفة، ج2، دار الطلبة، بيروت، لبنان، ط1، 1968، ص45.
6. ينظر: اعتدال عثمان، إضاءات النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 1998، ص07.
7. نوارة لحرش، مكان لا يعول عليه، دار الوطن اليوم، الجزائر، 2016، ص09.
8. نفسه، ص18.
9. نفسه، ص19.
10. نفسه، ص33.
11. نفسه، ص11.
12. نفسه، ص13.
13. نفسه، ص18.
14. نفسه، ص72.
15. جون كوهين، بناء لغة الشعر، تر: أحمد درويش، مكتبة الزهراء، القاهرة، مصر، ص35.
16. مكان لا يعول عليه، ص87.
17. نفسه، ص08.
18. نفسه، ص11.
19. أحمد المعداوي الجاطي، ظاهرة الشعر الحديث، شركة النشر و التوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ص88.
20. مكان لا يعول عليه، ص22/21.
21. نفسه، ص07.
22. نفسه، ص10.
23. نفسه، ص13، 14.
24. نفسه، ص20.